العلوم الاجتماعية في الجامعات الجزائرية: أبجديات الواقع وسؤال التأسيس.

Social Sciences in Algerian Universities: The ABCs of Reality and the Question of Foundation

محمد بلبشير، جامعة ابو بكر بلقايد-تلمسان- الجزائر

belbachirmed@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/08/07 تاريخ القبول: 2022/11/18 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص: العلوم الاجتماعية منتوج معرفي أفرزته الحداثة الغربية، إذ يرى أصحابها أنّها تعتبر في إطارها المنهجي والابستيمولوجي عن سلسلة التحولات التي عرفها الغرب بدءا من عصر النهضة إلى العقلانية والتنوير والثورة الصناعية....

إنّ ثمة حالة تاريخية أفرز إطارا معرفيا، فالسوسيولوجيا مثلا تعبّر عن الطبيعة التاريخية التي وصل إليها الغرب، وفي المقابل أسسوا الأنثروبولوجيا علما يعبّر عن الآخر المختلف والبارد والساكن واللا كتابي والغير منطقي.

الغرب عقلاني في منظوره ومجتمعه دينامي ومتحرك وتنظيمه عضوي معقّد بلغة دوركهايم.

هنا نحتاج إلى إعادة القراءة لموروثنا المعرفي ولموروث الغرب أيضا.

نحتاج أن نحدّد في أي إطار تاريخي نعيش، ثم ما الذي يمكن أن يفيدنا منه الغرب؟.

الكلمات المفتاحية: الغرب، الموروث، العقلانية الانثروبولوجيا

Abstract: Social sciences are a product of knowledge produced by Western modernity, as their owners see that they are considered, in their methodological and epistemological framework, about the series of transformations that the West has known, starting from the Renaissance to rationality, enlightenment and the industrial revolution....

There is a historical case that produced a framework of knowledge. Sociology, for example, expresses the historical nature that the West has reached. In return, they established anthropology as a science that expresses the different, cold, static, unscriptural and illogical Other.

The West is rational in its perspective and its society is dynamic and dynamic and its organization is complex organically in Durkheim's language.

Here we need to re-read our knowledge and the legacy of the West as well.

We need to determine in what historical context we live, and then what can the West benefit us from?

Keywords: West, heritage, rationality, anthropology

مقدمة:

العلوم الاجتماعية منتوج معرفي أفرزته الحداثة الغربية، إذ يرى أصحابها أنّها تعتبر في إطارها المنهجي والابستيمولوجي عن سلسلة التحولات التي عرفها الغرب بدءا من عصر النهضة إلى العقلانية والتنوير والثورة الصناعية.

إنّ ثمة حالة تاريخية أفرز إطارا معرفيا، فالسوسيولوجيا مثلا تعبّر عن الطبيعة التاريخية التي وصل إليها الغرب، وفي المقابل أسسوا الأنثروبولوجيا علما يعبّر عن الآخر المختلف والبارد والساكن واللا كتابي والغير منطقي.

الغرب عقلاني في منظوره ومجتمعه دينامي ومتحرك وتنظيمه عضوي معقّد بلغة دوركهايم.

هنا نحتاج إلى إعادة القراءة لموروثنا المعرفي ولموروث الغرب أيضا.

نحتاج أن نحدّد في أي إطار تاريخي نعيش، ثم ما الذي يمكن أن يفيدنا منه الغرب؟.

على المستوى العلوم الاجتماعية ثمة إشكالات كثيرة تواجه من يتغيا التنظير يرى البعض أنّ الحداثة مشروع كوني ومن أراد ان ينهض فما عليه إلاّ أن يتبنى مشروع الحداثة الغربية بمخرجاته الإبستيمية والمنهجية.

ويرى آخرون أن الخصوصيّة حاضرة حتى على مستواها المنهجي. وبالتالي ما يحدّد طبيعة العلم هو مقاربته و منهجيته. الحديث هنا عن تحيزات في النموذج المعرفي الغربي. وإن شئت قل جدلية الثقافة والمعرفة.

كل مجتمع ينبغي أن ينتج معرفته الخاصّة وبأدواته الخاصة أيضا.

كأن نقول في راهننا السوسيولوجي الجزائري إنّنا في جدليّة متأزمة مجتمع بحاجة إلى علماء اجتماع أو علماء اجتماع بحاجة إلى مجتمع.

أولا :حوار مع تاريخ العلوم الاجتماعية.

كلّنا يعلم بأنّ ميلاد البحث العلمي في الظواهر الإنسانية والاجتماعية في القرن التاسع عشر قد واكب في التاريخ الغربي ميلاد المجتمع الصناعي، وتطور نمط الإنتاج الرأسمالي، كما واكب مجمل التغيرات

الّتي عرفها الغرب الأوروبي في سياق تطور المجتمع، وتطور علاقات الإنسان بالطبيعة وبالتاريخ، وسعيه لمعرفة مظاهر السلوك الإنساني في مختلف أبعاده.

كما واكبت عمليات تشكل موضوعات العلوم الاجتماعية في الفكر الغربي صيرورة مجتمعية محدّدة ، محكومة من جهة بتطور نمط الإنتاج الرأسمالي ومحكومة من جهة أخرى بتطور المجتمع وتطور الأنظمة السياسية، وتمّ كل ذلك في أفق مزيد من ديمقراطية الحياة السياسية، كما تمّ سياق من تطور المعرفة نتيجة المتراكمات الّتي بلورها تاريخ الأفكار الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكذا تطور المعارف العلمية في مجالي الطبيعة والرياضيات، ثمّ في مجالات الطب والفلك والتاريخ[1]، وهو الأمر الذي ترك بصمات جلية في باب بناء المناهج والآليات المطابق لكيفيات مواجهة الظواهر الإنسانية (الاجتماعية والنفسية...)، من أجل تشريحها وفحصها، ثمّ بناء موضوعاتها بالأدوات الّتي تسعف بالتملك العلمي للمعطيات، واستخلاص النتائج والقوانين المترتبة على كل ذلك... إنّها مواكبة بين قيم التصنيع والتقنية والعقل [1].

من هذا المنطلق، وفي سياقاته ساد تكريس المنهج العلمي المعتمد على استخدام الحواس وحدها. بوصفها أداة للمعرفة العلمية .لدى أغلب مدارس العلم الغرب، وأسقطت في غضونه كل الحقائق التّي لا تشتق من المدركات المادية حتى أنه لم يعد للقوانين الإلهية والأخلاقية موضعاً في التشكيل المعرفي أو في بناء العلوم، فالواقع وحده مصدر التنظير وأضحت الرؤية المعرفية الغربية تهيمن على العقل الغربي وعلى تصوراته تجاه الآخر.

هذه الرؤية سادت منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن، بما تنطوي عليه من مفاهيم ونظريات مختلفة في العلم والمعرفة والمناهج العلمية والتفسيرات، في النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والدين وغيرها، حتى أن العلم صار ما يراه النموذج الغربي علماً، والمنهج ما يراه هذا النموذج منهجاً، وبالتالي قُيد تعريف العلم بأنه" كل معلوم خضع للحس والتجربة"، وهو ما تبنته اليونسكو باعتباره التعريف الوحيد الجامع لكل ما يُطلق عليه علماً، والمانع لدخول غيره فيه.

وقد أدى تبني هذا الاتجاه من المنهج العلمي للبحث إلى تطور المعارف العلمية في مجال الطبيعة والرياضيات والطب وعلم الفلك[2]...، لكنه أدى إلى نتائج خطيرة عند الانتقال إلى تطبيقه على دراسة الإنسان وفهم سلوكه والعلاقات الاجتماعية[3] ، نتيجة لإغفال الدور المحوري الذي تقوم به العوامل

---

[1] -- J.E. CHAOA, de la physique à l'homme méditation, 1965.

[2] -ALEXANDRE KOYE, étude D' histoire de la pensés scientifique, Gallimard , 1973.

[3] - إبراهيم عبد الرحمن رجب: 2002،العلوم الاجتماعية : الوضع الراهن و آفاق المستقبل . مجلة العلوم الاجتماعية المجلد 30، العدد4 ، جامعة الكويت،ص:34.

الروحية بوصفها عوامل سببية ، ونتيجة لإهمال ما يقدمه الوحي الصحيح من معرفة بالديناميات التي تسير تلك العوامل الروحية وفقاً لها في تأثيرها الكلي على السلوك مما يساعدنا على الوصول إلى تفسير أكمل للسلوك الإنساني ، ولقد كانت الحصيلة المرة لهذا كله ما وصف بعض الباحثين بالأزمة التي تواجهها العلوم الاجتماعية ، أو إلى مايشير إليه آخرون بأنها "الطريق المسدود " الذي تواجهه العلوم الاجتماعية في الوقت الحاضر[1].

أشار إيمانويل والرستاين(*Immanuel Wallerstein*) رئيس الجمعية العالمية لعلم الاجتماع إلى أن العلوم الاجتماعية اليوم ليست بخير لا على المستوى الابستيمولوجي ولا على مستوى فكر الروّاد الأوائل التي تستند عليه بقوة العلوم الاجتماعية الغربية اليوم[2].

ومن ثم ناشد الباحثين والمفكرين الاجتماعيين بأن لا يبقوا سجناء الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي لكي لا يعجزوا عن تغيير خريطة مشروعهم الفكري ، والتأهل بحق للتعامل مع متطلبات ومعطيات القرن الحادي والعشرين.

ثانيا: التحيّزوالتقليد:

إذا كان تاريخ المناهج الاجتماعية الغربية يشكل في جزئه الكبير تاريخ محاولات الخلق والإبداع، فإنّ تاريخ المناهج العربية الإسلامية ما يزال ينتظر من يكتبه. وفي اعتقادنا أنّ سبب ذلك لا يمكن كما يعتقد البعض في حداثة هذه العلوم في العالم الإسلامي أو في محدودية تراكمها الكمي، بل إنّ المشكل الحقيقي يتجلى في عدم أصالة نتاجها في العلوم الاجتماعية، وبالتالي عدم جدوى الدخول في مغامرة التأريخ لشيء ما يزال يتخبط في متاهات البحث عن التأسيس والبناء. ما نعنيه هو أنّ خطابنا العلمي الاجتماعي لم يتجرد بعد عن الدور الذي يلعبه كوكيل فرعي لمدارس واتجاهات علوم اجتماعية لا علاقة لها بخصائص الإنسان العربي المسلم، وبمقوماته الأساسية. لهذا لو تجرأ أحد على كتابة تاريخه، فإنّه لن ينجو حتما من تكرار بعض الأفكار الّتي تقدم بها علماء الغرب بخصوص تاريخ العلوم الاجتماعية الغربية، وهو التاريخ الذي أصبحنا نعرفه حق المعرفة بفعل الحيز الكبير الذي يشغله في كتابات العلوم الاجتماعية العربية. فعلى الرغم من أنّ فترة الخمسيات من القرن العشرينات تشكل الانطلاقة الفعلية للعلوم الاجتماعية في العالم العربي الإسلامي إلاّ أنّ الملاحظ هو أنّ هذه العلوم ما تزال تعيش فترة مخاض، بعيدة كل البعد عن استكمال شروط تأسيسها وتأصيلها. وما يقال عن العلم يقال عن منهجه.

---

1 - يراجع: خضر، أحمد (2000). إعتر افات علماء الإجتماع : عقم النظرية وقصور المنهج، لندن: المنتدى الإسلامي.
Et - stent , g . (1975) . limits to the scientific understanding of man . science,187:1052 -1057

[2] -wallerstein,I, The End of the World as We Know It Social Science for the Twenty-First Century,Minneapolis,University of Minnesota Press,1999,p:8-9

أبرز ما يميّز هذه المسألة هو أنّ البحث في الظواهر الاجتماعية في الجزائر والعالم الإسلامي العربي لم تنشأ بالآليات والوسائل العلمية مثلما حصل في التاريخ الغربي بفعل عملية تاريخية ذاتية، موصلة بصيرورة النظر إلى هذه الظواهر ضمن سياق تطور الأفكار والعلوم وتطور المجتمعات، قدر ما تنشأ في سياق عملية تقليد أفرزتها متغيرات خارجية وافدة [1].

لعلّ الاحتكاكات الأولى بالغرب عن طريق البعثات العلمية، والاختيارات الّتي سار فيها انتقاء أعضائها دون تخطيط مسبق، وفي غياب رؤية واضحة لما ينبغي أن تخدمها هذه البعثات عندما تعود إلى بلدانها[2]؟ خير تصور لنشأة العلوم الاجتماعية.

فإرسال الطلبة إلى الغرب كان دون توجيه علمي محدّد، فالطالب يدرس من تخصصه بقدر ما ينجح ويعود، ولم يحصل أن تمّ تخطيط في الجامعة الجزائرية لتكون بعثاتها في إطار مشروع يهدف إلى تأصيل العلوم الاجتماعية تأصيلا عربيا إسلاميا جزائريا، والعمل على استقلاله عن التبعية لما هو سائد في الجامعات الغربية الّتي يدرس فيها أولئك الطلاب الموفدون. وفي غياب التخطيط؛ لا جهد إلا في تكريس التبعية.

لقد ظل العقل الجزائري أسير الرؤية المنهجية الغربية، ممّا جعل المهتمين بالعلوم الاجتماعية في الجزائر يوجهون موضوعاتهم وأبحاثهم بأفكار غربية بعيدة عن واقع المجتمع الجزائري كالاشتراكية والثورة الزراعية وغيرها. و هذا ما يؤكده رشدي فكار في قوله : " شكل الاستعمار في مغرب العرب ومشرقهم العامل الأساس لإعاقة الإنتاج (العربي الإسلامي في حقل العلوم الاجتماعية) ، والقاسم المشترك في قصوره إمّا بصفة مباشرة عن طريق استنزافه لقدرات جانب كبير من النخبة في الصراع الذي فرضه عليها حين طغيانه على مجتمعاتنا، فانشغلت به بدلا من انشغالها بواقع مجتمعاتها وكيفية النهوض بها ، أو بصفة غير مباشرة حين إلقائه لإشكاليات صورية من فتات موائده الثقافية لتتلهى بها ما تبقى من هوامش النخبة غير الملتزمة بالصراع خشية أن تعبأ هي بدورها في مواجهته ومحاربته ، وعليه لم تُتح للنخبة في جملتها أن تتعرف على مجتمعاتها وحاجياتها ، وتهتمّ بإشكاليتها الأساسية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا بصفة عامة ..."[3].

---

[1] - ينظر:- أحمد خليفة ،وآخرون(1984). إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، بيروت ، لبنان: دار التنوير.
و- فاخري ،قل (1965). نشاط العرب في العلوم الاجتماعية في مائة سنة ، بيروت ، لبنان :هيئة الدراسات العربية .

[2] - محمد عز الدين توفيق (1986)، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية ط1، القاهرة، مصر،دار السلام ،ص: 17

[3] - فكاررشيد(1980). علم لاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا،معجم موسوعي عالمي،باريس: دارالنشر العربية.ص:ج.

ونتيجة لهذا وذاك لم يكن بإمكان الباحثين الأوائل في العلوم الاجتماعية – في العالم العربي والإسلامي – أن يطرحوا سؤال التمييز بين السوسيولوجيا الاستعمارية والسوسيولوجيا الّتي تتجه لمعرفة الظواهر خارج مخططات الهيمنة الخارجية.[1]

في هذا المناخ التاريخي اللامتكافئ واقعيا وموضوعيا تعرّفت الجامعات والمراكز الجزائرية على العلوم الاجتماعية ومناهجها ونتائجها، كما تعرف الباحثون – في الجزائر – على مختلف ظواهر الحياة وأنماط السلوكات الّتي انتقلت إليهم بفعل الاستدمار المباشر، ثمّ بفعل التأثيرات الّتي ترتبت عنها في تلافيق المجتمع وبنيان الواقع وفي مختلف جوانب الفكر والثقافة والمعرفة كما يذكر علي الكنز[2].

كما ترتب عنه إنتاج فكري في العلوم الإنسانية عامة، والعلوم الاجتماعية خاصة، إمّا بنقل مناهجها بواسطة الترجمة، أو بواسطة التجريب على معطيات الواقع العملي، ممّا عمل هذا الإنتاج على ترسيخ رؤية (الآخر) المختلف في الثقافة العربية الإسلامية المعاصر بصفة عامة.

لهذا لن نكون مبالغين إذا ما قلنا إنّ المجال الذي تتحرك فيه تجربة الجامعات الجزائرية لا يتعدّى الحدود النظرية الّتي رسمت معالمها أعمال بعض أقطاب العلوم الاجتماعية الغربية. أمّا الإسهامات الجديدة ذات الصلة الوثيقة لواقع المجتمع الجزائري، فما تزال في بدايتها الأولى المفعمة بقصورات شتى؛ أهمّها الافتقار إلى عنصري الإيجاد والإبداع. وهذا ما يؤكده محمد عثمان نجاتي بقوله: " إنّ علم النفس وجميع العلوم الإنسانية الأخرى الّتي تدرّس في الجامعات في البلاد الإسلامية هي علوم غربية في فلسفتها ووجهتها، أسّس نظرياتها علماء غربيون غير مسلمين، على أساس نتائج بحوث ودراسات أجريت في مجتمعات غربية غير مسلمة لها أساليبها في التفكير والحياة، ولها فلسفتها الخاصة في طبيعة الحياة ، وفي طبيعة الإنسان ورسالته في الحياة وغايته منها ، ولها معاييرها في دور الدين في حياة الإنسان [3] .

ثمة أزمة أخرى تتعلق بالمنهج وقف عبد الله العروي على خطها قائلا: "العلوم الإنسانية باستثناء الاقتصاد وما يدور في فلكه كالإحصاء...، تدرس إن هي دُرست عل المستوى النظري، أمّا البحوث التطبيقية الميدانية ، فإنّها غير مزدهرة في جامعاتنا ومعاهدنا ، مما يفسر لنا أنّ العرب لم يصلوا إلى درجة الإبداع في هذه العلوم مع أنّها ليست معقدة ، ولا تكلف تجهيزات باهظة كعلوم الطبيعيات وعلوم الحياة[4]".

---

[1] - الديالمي عبد الصمد(1989). تاريخ السوسيولوجيا في المغرب، الدار البيضاء،المغرب:مطبعة إفريقيا الشرق،ص:23

[2] - الكنز، علي (1986). نحو علم اجتماع عربي ، بيروت ، لبنان :مركز دراسة الوحدة العربية.ص: 99.

[3] - عثمان نجاتي محمد (1989). منهج التأصيل الإسلامي لعلم النفس ، بحث مقدّم لندوة القاهرة ، نحو علم النفس الإسلامي، ص: 01.

[4] - العروي ،عبد الله (1973). ثقافتنا في ضوء التاريخ ، بيروت ، لبنان :دار التنوير، ص: 174.

لهذا يمكننا القول إنّ المناهج، والنماذج المعرفية، ووسائل البحث: "ليست محايدة تماما" [1]، بل هي "تعبر عن مجموعة من القيم التي تحدد مجال الرؤية ومسار البحث، وتقرر مسبقا كثيرا من النتائج" [2]، وهذا "ما نطلق عليه اصطلاح "التحيز".

فمن جهة عندنا المناهج وأخواتها، ثلاثة أشياء إما منفصلة أو معطوفة، ومن جهة أخرى عندنا حكم –والحكم في أوسع تعريف إسناد صفة إيجابية أو سلبية إلى شيء ما- بأنها ليست محايدة (أو ليست بريئة في تعابير أخرى)، والحياد بصورة عامة يعني عدم التحيز، والرغبة في التجرد.

و هذه تدرج في التعريف بالسلب، سلب صفة الحياد والتجرد والبراءة عن المنهج، وإثبات صفة التحيز لها، وكل هذه المفردات: الحياد والبراءة والتجرد تبرهن إن المنهج ليس فارغا من المحتويات الفلسفية والعقدية، كما يحاول بعض الباحثين إقناعنا؛ يقول ستراوس: "البنيوية ليست بأي حال من الأحوال "فلسفة" وإنما هي مجرد "منهج" للبحث العلمي" [3]، ويقول آخر: "ليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود"[4]، ولا هو "أشبه ما يكون بوعاء ملئ معرفة أو طرحا نظريا وفلسفيا، ومن الممكن عبر تصور مجازي كهذا، إفراغ الوعاء مما فيه، وتعبئته بمادة مختلفة"[5].

بل المنهج، والنموذج المعرفي، والمصطلح...، خلفها معايير "تتكون من معتقدات وفروض ومسلمات وإجابات عن أسئلة كلية ونهائية".

والجامع بين العناصر الثلاثة الأولى: معتقدات + فروض + مسلمات، هو اعتبارها مبادئ يسلم بها أصحابها ابتداءً كنوع من الإيمان، أما الإجابات فتكون عن أسئلة كبرى ونهائية، تدور حول ثلاث محاور أساسية هي الإله والإنسان والطبيعة.

كما أن خلف هذه المناهج والنماذج، مجموعة من "القيم الكامنة المستترة"[6]، والتي تعبر عن ذاتها في شكل استعارات تضمر هذه القيم.

نجد أنفسنا في هذه التعابير أمام ثلاث كلمات خلف، وراء، تعبر، وكلها ألفاظ تحاول تثبيت فكرة أساس هي أن المنهج والنموذج... يحمل في أحشائه بعدا معرفيا معينا، وبعدا قيميا، مما يعني أن المناهج

---

[1]- المسيري:إشكالية التحيز، رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، فيرجينيا، هيرندن، ط3، 1418هـ/ 1998م.،ص:10

[2] - نفسه،ص:10

[3] - زكريا إبراهيم : مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، 1976، ص: 21.

[4] - كمال أبو ديب : جدلية الخفاء والتجلي، دراسة بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979، ص: 7.

[5] - سعد عبد الرحمن البازعي : ما وراء المنهج، تحيزات النقد الأدبي الغربي،دار الهلال ،مصر1995، ص: 176

[6] - المسيري: مرجع سابق،ص:17

والنماذج - وباستعارة دلالة تحيز اللغوية (المحسوسة)- تميل وتنضم وتنحاز إلى شيء ما، هو ما سماه المسيري بـ القيم أو المعايير.

ووجود هذه المعايير وهذه القيم "لصيقة بالمنهج [وبالنماذج، وبالمصطلحات، وبالسلوكات، وبالملابس...] لدرجة يصعب معها التخلص منها"، هو ما أطلق عليه المسيري "اصطلاح التحيز".

قد تبدو هذه المواقف متشبعة بآراء وأفكار مبالغ فيها، لكن ما يهمنا هو أنّ أغلب دراسات العلوم الاجتماعية في العالم الإسلامي عامة ومنها الجزائر بمناهجها غير المحايدة، قد بُنيت على عنصري الاستهلاك والمحاكاة لما يصنعه الغرب من نماذج نظرية وتقنيات ميتودولوجية، الّتي وإن كانت مفيدة لباحث العلوم الاجتماعية من الناحية المنهجية، فهي لا تحيط في محتوياتها بالخصائص النوعية للإنسان الجزائري. فمن مواطن الضعف الرئيسة في هذه الدراسات تعلقها من جهة بمختلف التفسيرات الجاهزة المستمدة من الدراسات الغربية وعدم ربطها من جهة أخرى لمسألة النظرية والتطبيق بواقع العالم الإسلامي. فمبدأ الوحدة بين ما هو نظري وما هو تطبيقي هو مبدأ مفقود في معظم أعمالنا، وهذا أمر طبيعي لأنّ الإطار النظري مستمد من النماذج الغربية والبعد التطبيقي متحايل عليه من خلال ما توظفه من أساليب قياسية وأدوات اختبارية مستوردة في مجملها. فالمنهج الذي اتبعه الغربيون في دراسة مجتمعنا لم يكن بريئا وإنّه مهما اتخذ من مظاهر موضوعية فإنّ موضوعيته محدودة للغاية[1].

وبالرغم من أنّ علماء الاجتماع أكدوا باستمرار على موضوعية هذه المناهج، إلاّ أنّ الكتابات الاجتماعية تدلّ دلالة واضحة على أنّ الباحث الغربي ظلّ في كل ما يكتب معبرا عن القيم الغربية وملتزما بالنظرة الاستعلائية لهذه القيم تجاه بقية الشعوب، ومن ثمّ تأتي أحكامه على هذه الشعوب الّتي يصفها بالتخلف والانحطاط والبدائية. أكد هذه النظرية المعيارية المقارنة عالم الأنثروبولوجيا إيفانز بريتشارد بقوله: " يجب أن نتذكر أنّ عالم الأنثروبولوجيا حين يحاول تأويل ملاحظاته على المجتمعات البدائية فإنّه يقارنها دائما ولو بشكل ضمني بما يجده في المجتمع الذي ينتمي إليه "[2].

ثمة جانب إيجابي في موضوعنا يخبرنا عنه تاريخ مناهج العلوم الاجتماعية في الجزائر. لقد عرفت السنوات الأخيرة نشاطا ملحوظا من حيث البحث والتأليف وكذا عقد المؤتمرات والندوات. وهي جهود مخلصة تستحق التقدير، خاصة وأنّ مسألة أزمة التطور الحضاري في الجزائر وكيفية مواجهة تحديات

---

[1] - بوحديبة ،عبد الوهاب (1981) .تطور مناهج البحث في العلوم الاجتماعية ، مجلة عالم الفكر،المجلد 20 ، العدد الأوّل :الكويت، ص : 25.

[2] - ايفانز، بريتشادر(1980). الأنثروبولوجيا الاجتماعية ط6، ترجمة : أحمد أبوزيد ، القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص: 30.

التبعية أصبحت تمثل الشعار المشترك الذي تدور حوله الكتابات وتُعقد له المؤتمرات والملتقيات، لكنها لم تترك بعد أثرا على أرض الواقع في الجامعات والمراكز البحثية الجزائرية.

ثالثا : الأسس المنهجية والمتطلبات العلمية.

نتج عن الأبحاث المنجزة في العلوم الاجتماعية لواقع الجزائر تراكما متعددا غطى جوانب هامة من الحياة الإنسانية في المجتمع الجزائري، وبصورة تدفعنا لطرح سؤال التميز في مجال تطوير المعرفة بحدود ومستويات الممارسات البحثية في مجال العلوم الاجتماعية[1]. هل من مناهج بحثية تتوافق مع سياقنا الحضاري ومنظومتنا الثقافية؟ ذلك هو جوهر الموضوع كما نتصوره. ومن السهل أن نحصل على إجابة نمطية لسؤالنا، ولكن القضية أعمق؛ إنّها حوار مزدوج مع العلم ومع تاريخه في آن.

لعلّ وجود أسس منهجية ومتطلبات علمية في مشروع توطين علوم اجتماعية جزائرية، يساعدنا في تأطير موضوع البحث و بالتالي الفهم من تلك الأسس والمناهج :

أ: الأسس المنهجية:

أفرزت هوية المناهج ما يمكن أن نسمّيه المواقف الحدية، حيث يقف البعض موقف الرفض المطلق، والبعض الآخر يقف موقف القبول الأعمى لمناهج العلوم الاجتماعية[2].

وتبعا لهذا التحديد الواقعي، نشير إلى إلزامية التميز بين العلوم الاجتماعية بوصفها علوما ذات موضوعات ومناهج من جهة، والعلماء الاجتماعيين بوصفهم أشخاصا لهم ميولهم ومعتقداتهم وأيديولوجياتهم، بل ولهم رغباتهم ونزواتهم من جهة أخرى[3].

وعليه وجب التوازن النقدي، فلا رفض تام للمناهج الاجتماعية الغربية! كما لا قبول مطلق! بل لابدّ من أن ندرك أهميتها، وندرك في ذات الوقت خطورتها إذا انتقلت إلى المجتمع الجزائري دون فحص، معتمدين على خصوصية المجتمع الجزائري وقيمه وطموحه في الاستقلال الحضاري.

فعندما نتحدث مثلا عن التصورات التاريخية لموضوع الأسرة والدولة في المنظور الاجتماعي والسياسي الذي تبلور في أوروبا في القرن التاسع عشر، أو نتحدث عن المنظور الوظيفي للأسرة كما بلورته جهود المدارس الاجتماعية الّتي نشأت خلال القرن العشرين، فإنّنا بمقتضى الشرطية العلمية لا نتحدث عن نظريات ولا تصورات ولا مفاهيم مطلقة، فكل نظرية وكل مفهوم يرتبط بسياقات نشأته. ويفترض أنّ

---

1 - الجابري ،محمد عابد (1988). مساهمة في نقد السوسيولوجيا الاستعمارية ضمن كتاب المغرب العربي، الخصوصية والهوية .. الحداثة والتنمية ، المغرب : مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر.ص:25.

2 - كمال ،عبد اللطيف (1997). العرب والحداثة والسياسة ، بيروت ، لبنان: دار الطليعة ،ص:20.

و- محمد عزالدين توقيق ،1988، المرجع السابق،ص:30

3 - عشوي ،مصطفى (1997). نحو تكامل العلوم الاجتماعية والعلوم الشرعية ، مجلة التجديد ، العدد 02،السنة الأولى ، ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية.ص:56.

أي تطور أو تغير في السياقات المذكورة يؤدي بالضرورة إلى لزوم إعادة النظر في المقدمات والوسائل والنتائج، ذلك أنّ اتساع المجال المرجعي عن طريق التراكمات يتطلب تغييرا في المفاهيم والقوانين، كما يتطلب تعديلا في الآليات ووسائل المقاربة، وهذا الأمر يؤدي في النهاية إلى لزوم الاحتياط، وذلك انطلاقا من الوعي بنسبية المعطيات المحصلة[1].

إنّ محاولة النظر إلى العلوم الاجتماعية واستيعاب مناهجها ونظرياتها ثمّ نقدها، تمكن الباحث في الجزائر من إعادة إنتاج المفاهيم والنظريات بإدخال المتغير الذاتي، حيث يؤدي النقد في النهاية إلى انطلاق مشروع في التركيب الجديد، مشروع إعادة الإنتاج القادر على استيعاب الظواهر المحلية ضمن الصيرورة المحصلة في الممارسة العلمية كما تبلورت في التاريخ[2].

غير أنّ فحص نظريات ومفاهيم ومناهج العلوم الاجتماعية الغربية قد يؤدي إلى إخضاع المناهج الاجتماعية للرؤية الدينية الإسلامية والقومية العربية، ما يؤدي بالضرورة إلى البحث عن الحق والباطل والإيمان والكفر ممّا يجعلنا أسرى التراث. ولعلّ هذا ما جعل" كليفورد غيرتزي" عنون أحد كتبه " الإسلام ملاحظا "، ولتفادي ذلك ينبغي أن تكون فكرة البحث عن الخطأ والصواب أو الحق والباطل آخر الأفكار الّتي يُرجع إليها.[3]

ولتجاوز هذه المآزق ينبغي أيضا على الباحثين الاجتماعيين في جغرافيتنا أن يُسهموا في تبيان أهمية هذه العلوم بمناهجها المدروسة في خدمة الدين و والأمة انطلاقا من الأسس المنهجية التالية:

تفادي الأحكام القيمية (أحكام القيمة) قدر الإمكان في دراسة الظواهر النفسية والاجتماعية، دون التنكر لموضوع القيم أو رفض قيم المجتمع الجزائري، بل ينبغي اعتبار القيم موضوعا نفسيا، ودراسته دراسة علمية هدفها كشف الهوة بين عالم القيم وعالم السلوك الذي يتصف به الجزائريين حسب بعض العوامل الأساسية: البيئة - الثقافة. الشخصية التاريخية.

تجنب الغلو في الرجوع إلى التراث في كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلّق بالظواهر النفسية والاجتماعية المعاصرة.

عدم التطرف في رفض كل ما هو "غير جزائري"، بل ضرورة الاستفادة من التراث الإنساني بتنويعاته المختلفة.

عدم التماثل مع الغرب في كل نظرياته وفلسفاته وخلفياته الإيديولوجية.

---

1 - علي الكنز، 1986، المرجع السابق،ص: 103.

2 - كمال ،عبد اللطيف (2000) . تأصيل العلوم الإنسانية في الفكر العربي المعاصر، مجلة البحرين الثقافية ،العدد 24،المنامة، البحرين، ص:30

[3] - العلواني ،طه جابر (1996). ندوة حول "إسلامية المعرفة" تنظيم كلية معارف الوحي والعلوم الاجتماعية ، الجامعة الإسلامية العالمية ، ملبزيا ، 7-11 يونيو 1996.

اعتماد القرآن الكريم والسنة النبوية مصدرين معرفيين يتكاملان مع المعرفة العلمية الّتي يلخصها الإنسان بالاستنباط والاستقراء وغير ذلك من طرق البحث العلمي الّتي تتفرع عنها[1].

توظيف مناهج العلوم الاجتماعية لوصف مشكلات المجتمع الجزائري والنفسية وصفا دقيقا، لوضع الاستراتيجيات والخطط المناسبة لكل مجتمع حسب الظروف البيئية والثقافية والتاريخية...

إنشاء المؤسسات الجزائرية المهتمة بالعلوم الاجتماعية، وتكوين الجمعيات والهيئات، وإقامة شبكات الاتصال بين الباحثين الجزائريين لتبادل الخبرات والتعاون في مختلف المجالات.

تصميم مناهج جامعية تحقق الاندماج والتكامل بين المعرفة الشرعية والبحث في العلوم الاجتماعية، مع إعداد الكتب والقراءات المناسبة لكل وحدة بحث من قبل الخبراء والباحثين[2].

ب: المتطلبات العلمية:

إنّ الاستسلام للمناهج الغربية كلية واجترار النظريات المستوردة وقبول المفاهيم الفكرية دون تمحيص يؤدي إلى تزييف الواقع وإلى الغموض بدل الوضوح وإلى سطحية الدراسة وإلى الضياع في متاهات الفكر الغربي.

وهنا يأتي دور باحث العلوم الاجتماعية في الجزائر، الذي يقوم بنقد المفاهيم الغربية، ووضع تصميمات البحوث الاجتماعية لفهم مجتمعاتنا، وفهم مشكلاته ووضع الحلول لتلك المشاكل، وذلك بأخذ معايير ذاتية تأخذ بعين الاعتبار العناصر الموضوعية المكونة للمجتمع الجزائري، وإعادة النظر في طرق البحث لننطلق من معايير ذاتية ثابتة مستقاة من واقع هذه المجتمعات.

هكذا نكون قد أسقطنا مناهج العلوم الاجتماعية بالصورة الّتي تساهم في إعادة بناء هذه المناهج؛ بل وتأسيسها وفق العناصر المكونة للمجتمع والجزائري وخصوصيات[3]. فعند البحث في مجال الظواهر والمشكلات الاجتماعية والنفسية، مثل ظاهرة المخدرات أو العنف... يتطلب استحضار منظومة

---

[1] - للتوسع ينظر:

- إبراهيم عبد الرحمن، رجب (1991). المنهج العلمي للبحث العلمي من وجهة إسلامية. ورقة مقدمة للندوة الأولى للتأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية ، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي

و-الفاروقي، إسماعيل (1986). إسلامية المعرفة: المبادئ العامة ـ خطة اعمل ـ الإنجازات، ترجمة: عبد الحميد أبو سليمان، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص:80-117.

[2] - مصطفى عشوي، 1997، المرجع السابق، ص: 73 ـ 74.

[3] - أحمد خليفة وآخرون،المرجع السابق.

القيم السائدة في علاقتها بمنظومة القيم الوافدة. بل إنّ الأمر يقتضي استحضار الظواهر الّتي عملت على عولمة أمراض وظواهر اجتماعية لم تكن ممكنة في مجتمعاتنا قبل عقدين من الزمان[1].

ففي هذا الطور الانتقالي الذي تعرفه مجتمعاتنا وهي تزاوج في حياتها بين التقليد والمعاصرة، بين منظومة القيم التراثية والنسق القيمي الذي انتقل إلينا ضمن سياق الصيرورة التاريخية المجتمعية؛ يهيمن فيها الغرب بقيمه الاستهلاكية وبنظرته الخاصة للإنسان والحياة والمصير، في هذا الطور بالذات نشأت وتنشأ داخل محيطنا الاجتماعي والنفسي والتاريخي معطيات لا مفرّ من مراعاتها عند كل محاولة لفهم ظواهرنا وتعقب معطيات وجودنا، سواء في مستواها النفسي الفردي الخاص أو في مستواها الاجتماعي السلوكي العام.

خاتمة :

بعد هذا كله أو جزئه إن الورقة لا تهدف إلى التقليل من القيمة الإنسانية لإبداعات الغرب، ولا إلى تحميله مسؤولية كل ما حدث لنا من متاعب ومصائب ، ولكنه يهدف إلى رؤية النموذج المعرفي الغربي باعتباره أحد التشكيلات الحضارية الإنسانية وليس التشكيل الوحيد، وبالتالي سيكون بإمكاننا التعامل معه دون قلق، فلا نقبله كله ولا نرفضه كله بل ندرسه كتشكيل حضاري إنساني له سلبيات وإيجابيات، وللتخلص من الإحساس بمركزية الغرب، ونزع صفة العالمية عنه، يجب إدراك خصوصية الحضارة الغربية والظروف التاريخية والثقافية التي أفرزتها، وكذلك مصادرها والمؤثرات التي ساهمت في تشكيلها. ، وأرى أن تحيّز الباحثين في الجامعات والمراكز الجزائرية في العلوم الاجتماعية أو لنقل جميعها تقريبا - للنموذج المعرفي الغربي لم يكن بعد اختيار واختبار ومعرفة، وإنما بسبب انبهار جعلهم لا يرون غيره، وليس بعد اطلاع مجموعة الآراء الأخرى ثم اختار ما وجدوه أقرب إلى الصواب وفق اجتهادهم ووجهة نظرهم.

إن نقد المناهج الغربية ونقد ذواتنا في هذا المسلك سيمكّننا هذا من الانفتاح على التشكيلات الحضارية الأخرى، ورؤية تشكيلنا الحضاري الخاص بنا واحترامه والعمل على المحافظة عليه حتى نستمر ككيان له هوية متماسكة، كما يجب أن نطمح للوصول إلى نظرية شاملة نعرف مسبقاً أنها لن تكون قادرة على تفسير كل شيء بشكل نهائي، لأنها نظرية شاملة نسبياً وهو ما يميز كل ما هو ممكن إنسانياً.

إنّ التفكير في تأصيل العلم ومناهجه له أهميته الموضوعية في تطوير البحث ضمن المستوى المعرفي خروجا من نفق الاستلاب والتقليد والتحيّز إلى أفق التأسيس والإبداع وقوفا على عتبة ترسيخ دروس هذا البحث، مفاهيمه ومناهجه ضمن معطى الخصوصية.

---

[1] - كمال ،عبد اللطيف (1998). أسئلة العولمة . ندوة المجلس الأعلى للثقافة ، العولمة والهوية الثقافية ، القاهرة ، مصر.ص:22.

فالأزمة في المنهج وليدة الأزمة في العلم ذاته. وحين يكون المنهج قائما على الفهم (معنى الداخل) لا على التفسير (معنى الخارج) تصبح القوانين غير ثابتة، وصياغتها تخضع بالتالي لظروف الزمان وملابسات المكان. وحين تقترب المناهج من المجال الإنساني يتدخل العلم مع القيم، ويصبح الحياد والموضوعية أمرا في غاية الصعوبة. كما أنّ فهم العوامل الروحية غير المادية التي تنتمي إلى عالم الغيب يتطلب اعتماد الوحي بوصفه مصدراً متعالياً للمعرفة بهذا الجانب من التكوين الإنساني.

فعليه يمكن القول إنّ الخروج من الأزمة يقتضي التوصل إلى مناهج بحث تلائم الانتماء، العلم لا يوجد في فراغ وإنما هو دائما منتمي. والانتماء الذي نتحدث عنه هو انتماء للعقل المستنير والمتحرر والمبدع.

المراجع العربية :

1. إبراهيم عبد الرحمن، رجب (1991). المنهج العلمي للبحث العلمي من وجهة إسلامية. ورقة مقدمة للندوة الأولى للتأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
2. أحمد خليفة ،وآخرون(1984). إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، بيروت ، لبنان: دار التنوير.
3. ايفانز، بريتشادر(1980). الأنثروبولوجيا الاجتماعية ط6، ترجمة : أحمد أبو زيد ، القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب.
4. الجابري ،محمد عابد (1988). مساهمة في نقد السوسيولوجيا الاستعمارية ضمن كتاب المغرب العربي، الخصوصية والهوية الحداثة والتنمية ، المغرب : مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر.
5. الخضر، أحمد (2000). إعترافات علماء الإجتماع : عقم النظرية وقصور المنهج، لندن: المنتدى الإسلامي.
6. الديالمي عبد الصمد(1989). تاريخ السوسيولوجيا في المغرب، الدار البيضاء، المغرب: مطبعة إفريقيا الشرق،
7. زكريا إبراهيم: مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، 1976.
8. سعد عبد الرحمن البازعي: ما وراء المنهج، تحيزات النقد الأدبي الغربي، دار الهلال، مصر 1995.
9. عثمان نجاتي محمد (1989). منهج التأصيل الإسلامي لعلم النفس، بحث مقدّم لندوة القاهرة، نحو علم النفس الإسلامي
10. العروي،عبد الله (1973). ثقافتنا في ضوء التاريخ، بيروت، لبنان: دار التنوير.
11. العلواني، طه جابر (1996). ندوة حول "إسلامية المعرفة" تنظيم كلية معارف الوحي والعلوم الاجتماعية، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا ،*7-11* يونيو *1996*.
12. فاخري، قل (1965). نشاط العرب في العلوم الاجتماعية في مائة سنة، بيروت، لبنان: هيئة الدراسات العربية.
13. الفاروقي، إسماعيل (1986). إسلامية المعرفة: المبادئ العامة ـ خطة اعمل ـ الإنجازات، ترجمة: عبد الحميد أبو سليمان، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي،
14. فكار رشيد (1980). علم لاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا، معجم موسوعي عالمي، باريس: دار النشر العربية.
15. كمال، عبد اللطيف (1997). العرب والحداثة والسياسة، دار الطليعة، بيروت، لبنان
16. كمال عبد اللطيف (1998). أسئلة العولمة. ندوة المجلس الأعلى للثقافة، العولمة والهوية الثقافية، القاهرة، مصر.
17. كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي، دراسة بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979.

18. الكنز، على (1986). نحو علم اجتماع عربي، بيروت، لبنان : مركز دراسة الوحدة العربية.
19. محمد عز الدين توفيق (1986)، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية ط*1* ، القاهرة، مصر ،دار السلام .
20. المسيري عبد الوهاب:إشكالية التحيز، رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، فيرجينيا، هيرندن، ط3، 1418هـ/ 1998م.

المراجع الاجنبية:

1. *ALEXANDRE KOYE,(1973) étude D' histoire de la pensés scientifique, Gallimard.*
2. *J.E. CHAOA, de la physique à l'homme méditation, 1965.*
3. *stent , g . (1975) . limits to the scientific understanding of man. science,* .1987
4. *wallerstein,I, The End of the World as We Know It Social Science for the Twenty-First Century,Minneapolis,University of Minnesota Press,1999.*

ج- الدوريات.

1. إبراهيم عبد الرحمن رجب: 2002،العلوم الاجتماعية : الوضع الراهن وآفاق المستقبل . مجلة العلوم الاجتماعية المجلد 30، العدد4 ، جامعة الكويت.
2. بوحديبة ،عبد الوهاب (1981) .تطور مناهج البحث في العلوم الاجتماعية ، مجلة عالم الفكر،المجلد *20* ، العدد الأوّل :الكويت.
3. العشوي ،مصطفى (1997). نحو تكامل العلوم الاجتماعية والعلوم الشرعية ، مجلة التجديد ، العدد 02،السنة الأولى ، ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية.
4. كمال ،عبد اللطيف (2000) . تأصيل العلوم الإنسانية في الفكر العربي المعاصر ، مجلة البحرين الثقافية ،العدد *24*،المنامة، البحرين.